V ـ أدموند هوسرل E. Husserl وأزمة العقلانية الأوروبية

حين وصل النازيون الى الحكم في أوروبا كان هوسرل في الرابعة والسبعين من عمره ، وقد بذل كل جهده العقلي للدفاع عن منهجيته ، الفينومينولوجيا أو الظاهراتية . وفجأة مع التغيير الجذري السياسي أحس بحاجته إلى شيء غير الدفاع عن الأنا ووصفها وكشف معناها . أحس بأزمة خانقة تعصف في كل الغرب وتهدده ببربرية مميتة . لا بد إذن من طرح الأزمة في كل أعماقها ومعرفة أسبابها ، وهذا قاده الى نوع من فلسفة التاريخ . إلى نوع من التأمل في العقلانية وفي المعنى الأخير لكل أوروبا أي لكل الحضارة الغربية . . عاش هوسرل سنواته الأخيرة إلى حين وفاته سنة 1938 م وهو يحاضر عن هذه الأزمة في العقلانية الغربية وأدركته المنية وهو ما يزال يعمل دفاعاً عن الفلسفة وعن العقلانية . وقد جمعت محاضراته ومقالاته حول هذا الموضوع في كتاب عرف باسم كريزس Krisis أي الأزمة ، أزمة العلوم الأوروبية والإنسانية الاوروبية . وهو يعد بمثابة وصية مؤلفه[8] . ويمكن أن نختصر موقف هوسرل على الشكل التالي :

ـ الأزمة الحالية هي في عمقها أزمة علوم وأزمة حضارة أي أنها أزمة عقلانية ولا يمكن حلها إلا حين نعرف الغاية من كل تاريخ أوروبا أي حين نحدد مفهوم أوروبا والصورة الروحية لها .

ـ حين نبحث عن المعنى الأخير للتاريخ الفكري الأوروبي نرانا أمام ضرورة تحديد مكان ولادة أوروبا وزمان هذه الولادة . لقد ولدت أوروبا في اليونان مع ولادة الفلسفة في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد . ولقد اقترن مصير أوروبا بمصير الفلسفة أي بروح الفلسفة . هناك إذن استمرارية حضارية روحية بين الحضارة اليونانية القديمة والحضارة الغربية المعاصرة . والصورة الروحية لأوروبا هي في الحياة الداخلية

---

(8) أنظر الترجمة الفرنسية : Edmund Husserl: La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale, traduit et préfacé par Gerard Granel, éd. Gallimard, Paris, 1976.
أنظر كذلك للمؤلف نفسه كتاب La crise de l'humanité européenne et la philosophie, traduction Paul Ricœur, éd. Aubier Montaigne, Paris.

الروحية ، في المهمة اللامتناهية للعقل ، « فالعلم الأوروبي ولد من الأفكار التي أنتجها العقل أي روح الفلسفة » .

ـ إن الأزمة التي تجتازها أوروبا حالياً هي أزمة مصير ، إذ أن أوروبا تمر بأزمة وجود وهي تشكل خطراً داهماً مميتاً ، إذ ليس هناك سوى حل من اثنين : « فإما أن تتلاشى أوروبا وهي تصبح أكثر فأكثر غريبة ومبتعدة عن معناها العقلي الذي يشكل المعنى الحيوي لوجودها لتغرق أخيراً في بحر الحقد على الروح وفي مستنقع البربرية » وإما أن تعرف أوروبا حقيقتها وتتغلب على كل شك حول مصيرها ومهمتها الحضارية فتولد من جديد من داخل أزمتها ومن « رماد الشك المدمر » وبفضل بطولة العقل لتشرق شمس مستقبل عظيم ودائم لكل البشرية .

ـ إن الأزمة الراهنة بالرغم من أنها أزمة في العقلانية الأوروبية وبالرغم من أنها مصيرية إلا أنها أزمة عرضية أي أنها أزمة عابرة . هذه الأزمة لا تطال جوهر العقلانية إذ إنها مجرد مثل ظاهري للعقلانية . جوهر العقلانية لا تمسه الأزمة ولا تطاله العاصفة ، ما حدث هو أن العقلانية في أوروبا المعاصرة أصبحت ضحية الاستلاب « حين انحدرت فانغمست في المذاهب الطبيعية والموضوعية » . الأزمة تطال إذن في نهاية التحليل عقلاً في حقبة تاريخية ، تطال العقل الغربي الحالي الذي كان همه النجاح والمنفعة . هذا العقل أنتج مختلف أنواع النسبيات كالنفساوية psychologisme والطبيعاوية naturalisme والعلماوية scientisme وهي كلها ترفض تعالي العقل وترفض البحث في الأنا المحض ، الأساس الوحيد الصلب من أجل إقامة علم نفس حقيقي .

ـ هناك في النهاية خطر حقيقي يتربص بالإنسانية الغربية وهو خطر الشك في كل شيء ، وخطر التعب أمام طغيان المذاهب الموضوعية وبالتالي هناك خطر الاستسلام اللاأدرية حديثة، والخوف من خوض معركة الروح لأنها معركة طويلة الأمد تحتاج إلى نفس طويل ، والخوف كل الخوف أن تستسلم أوروبا للموجة الكاسحة من المدارس الوضعية والنسبية فتغرق في بحر الشك وتنسى نفسها ، فيغوص العقل ويتعطل عن عمله الإبداعي الروحي ، وتسطع شمس اليأس ، شمس العقلانية الزائفة التي أخذتها موجة الحصول على النجاح السريع ، وعلى النفع المباشر .

VI ـ ملاحظات حول دفاع هوسرل عن العقلانية والعقل

لا بد أولاً من الإعتراف بأن ما قام به هوسرل في سني حياته الأخيرة يشكل فعل إيمان لا يتزعزع بقيمة العقل وبالحاجة للعودة الى روح الفلسفة من أجل تجديد الإنسانية . ولكن هل استطاع هوسرل أن يرى بالضبط كل العواصف الآتية على الغرب

من شتى النجاحات العلمية ؟ إن دفاعه عن علم نفس قائم على الوصف والقصدية والأنا المحض وتعالي العقل لم يمنع هذا العلم من أن يستقل كلية عن الفلسفة ، ويصبح علماً موضوعياً له منهجياته الوضعية . لقد كان علم النفس آخر علم يستقل عن الفلسفة وكان يجب تركه يستقل دون ضجيج ، فمن حقه كغيره من العلوم الإنسانية أن يؤسس وضعيته الخاصة به .

إن هوسرل حين ذهب يبحث عن الغائية الأخيرة لأوروبا وتاريخها أكد بوجود إستمرارية لأوروبا منذ عهد اليونان القدماء . فهل هناك حقاً إستمرارية بين التراث اليوناني القديم والحضارة الغربية ؟ هوسرل يلتقي هنا مع تلميذه الشهير هيدجر بالقول بأن الفلسفة أوروبية وواحدة لم تتغير منذ مؤسسيها قبل سقراط . غير أن هذه وجهة نظر ليست أكيدة . لقد أكد فوكو في « الكلمات والأشياء » بأن الابستمة داخل الحضارة الغربية نفسها قد مرت بانقطاعات عدة ، وبالتالي فإن الإعتقاد بوجود استمرارية حضارية منذ عصر النهضة الى زماننا المعاصر أمر خاطىء[9] أو على الأقل يحتمل المناقشة ، فكيف والأمر يتعلق بحضارة بعيدة جداً عن الحضارة الصناعية الغربية المعاصرة . أن تأثر الغرب بالفلسفة اليونانية أمر أكيد وهو مستمر غير أن التأثر شيء واستمرارية الغائية الحضارية أمر آخر ، إذ ليس من الصعب البرهنة على أن الإشكالية التي كانت تسود الحضارة اليونانية تغيرت جذرياً مع الحضارة الأوروبية .

إن وضع هوسرل اللائمة في الأزمة التي تعصف في العلوم الأوروبية على العقلانية المنغمسة في العملي وفي المدارس الطبيعية والوضعية والموضوعية ، وتأكيده بأن العقل براء من هذه العاصفة ، قول يستدعي بعض الدهشة ، ذلك أن الفلسفة عند اليونان لم تكن تبغي أية منفعة مادية كما يؤكد أرسطو ، غير أن الحال قد تغير كلية منذ القرن الثالث عشر في الغرب ، منذ أن لم يعد العمل رمز استعباد الإنسان بل أصبح طريق خلاصة . العقل الغربي منذ أن كان ، كان منغمساً في النافع وبالتالي كان يبحث عن النجاح وعن الوسائل الكفيلة بتحقيق ما يطمح اليه من رفاهية ، وتمتع بخيرات الأرض . هذا العقل كان إذن يلهث وراء الوضعيات والمنهجيات الموضوعية لأنها وحدها كفيلة بأن تجعله سيد الطبيعة ، وان يخضعها لإرادته ويتحكم بها كما يشاء .

إن إرادة النجاح والسعي وراء المنفعة المادية المباشرة قد ميزت العقل الغربي عن العقل اليوناني الذي يريد أن يعرف قوانين الظواهر الطبيعية ليحترم الطبيعة ويتبعها ، في

---

(9) أنظر كتاب Michel Foucault. Les Mots et les choses, éd. Gallimard, Paris, 1966 وصدرت ترجمته الى العربية عن مركز الانماء القومي ، بيروت .

حين كان الغربي وما يزال يريد الهيمنة من أجل الكسب المادي والمنفعة . ويكفي بهذا الصدد أن نعلم بأن ديكارت ، رائد العقلانية الغربية الحديثة يردد عدة مرات كلمة منفعة utilité بمعناها المادي المحض ، وحتى في كتابه حول « انفعالات النفس » يقول بأن الحب نافع للصحة (انفعالات النفس ، المقالة السابعة والتسعون)[10] . غير أن ما له دلالته في هذا الصدد هو ما يختم به ديكارت كتابه « مقال عن المنهج » «ولكني على أثر تحصيلي لبعض المعارف العامة في علم الطبيعة واختباري لها في معضلات مختلفة خاصة ، لاحظت مدى ما تستطيع أن تقود اليه ، ومبلغ إختلافها عن المبادىء التي يستعان بها حتى الآن ، على أثر ذلك إعتقدت انني لا أقدر على إبقائها مختبئة . . . لأن هذه الأنظار في علم الطبيعة بينت لي إمكان الوصول الى معارف مفيدة للحياة فائدة كبيرة ، وبدلاً من هذه الفلسفة النظرية التي تعلم في المدارس فإنه يمكن أن نجد عوضاً عنها فلسفة عملية ، بها إذا عرفنا ما للنار والماء والهواء والكواكب والسماوات ، وكل الأجرام الأخرى التي تحيط بنا من قوة واعمال ، معرفة متمايزة كما نعرف مهن صناعتنا المختلفة ، فإننا نستطيع استعمالها بنفس الطريقة وفي كل المنافع التي تصلح لها ، وبذلك نستطيع أن نجعل أنفسنا سادة ومسخرين للطبيعة ، وهذا جدير بأن يرغب فيه لابتداع ما لا يحصى من المصنوعات التي تجعل المرء ينعم بدون جهد بثمرات الأرض وبكل ما فيها من أسباب الرفه »[11] .

من الواضح أننا هنا أمام عقل منغمس كلية بالنافع وهمه الراحة المادية ، ويعرف ما في العلم الطبيعي من إمكانات للإستثمار التكنيكي ، ويعلم بأن التقدم العلمي والتقني مفتوح الى ما لانهاية ، أي أنه يتطور باستمرار ويتحسن وينتج آلات جديدة أنفع للإنسان ورفاهيته المادية . فإلى جانب ديكارت مكتشف الكوجيتو هناك ديكارت آخر هو منظر التقدم العلمي والتقني .